التجليّات الفكرية والاجتماعية في رواية "مُحال "ليوسف زيدان

د. المثنى العساسفة* د. عدنان الشريم** د. حسن المجالي***

تاريخ وصول البحث: 2023/5/1م تاريخ قبول البحث: 2023/8/6م

الملخص

تهدف هذه الدراسة التحليلية إلى إظهار التجليات الفكرية والثقافية في رواية "محال" للكاتب والروائي يوسف زيدان حيث تبنت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على إبراز الثيمات والمضامين الفكرية والاجتماعية وربطها بالواقع الحالي وتبنت هذه الرؤية وتجلياتها الصورة العقدية والفكرية المتمثلة بإشكاليات المصطلح وتناقضاته من مثل: الإرهاب، والتكفير، والجهاد، والصورة الاجتماعية التي تنطلق من واقع فكري ونفسي تمثل صورة المجتمع الشرقي في مصر والسودان.

ولعل هذا التجاور الفكري والاجتماعي وربطه بمبدأ السببية سيظهر لنا جلياً في مفردات هذا المنحى الإبداعي الروائي "محال" حيث تتبع الباحث الرؤية الشرقية وتناقضاتها مع صورة المرأة وتجلياتها في مفردات هذه الرواية محط الدراسة.

الكلمات المفتاحية: صورة المرأة، الرحلة، التكفير، الجهاد، الإرهاب، السياق، الزمني، الفكر، الاجتماع.

The Intellectual and Social Manifestations in the Novel "Mohal" by Youssef Zaidan

Abstract

This analytical study aims to show the intellectual and cultural manifestations in the novel “Mohal” by the writer and novelist Youssef Zaidan. Terrorism, atonement, jihad, and the social image that stems from an intellectual and psychological reality represent the image of the eastern society in Egypt and Sudan.

Perhaps this intellectual and social juxtaposition and linking it to the principle of causation will appear to us clearly in the vocabulary of this novel's creative approach, as the researcher traces the eastern vision and its contradictions with the image of women and their manifestations in the vocabulary of this novel, which is the focus of study.

Keywords: Atonement, Context, Image of the woman, Jihad, Journey, Meeting.
Terrorism, Temporal, Thought,

* أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، الجامعة الأردنية.

** أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، جامعة أربد الاهلية. *** أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، جامعة البلقاء التطبيقية.

المُقدمة:

سبب الدراسة: يعود السبب في اختيار هذا الموضوع إلى رغبة الباحث في الحديث عن تجليات مضمونية أظهرتها هذه الرواية، حيث قدم الباحث بحثاً مستقلاً في مجلة دراسات تناول فيه التشكيل الفني في رواية "محال"*[i] ووجد نفسه ملزماً بإظهار الجانب المضموني والفكري في هذه الدراسة لتصبح دراسة مكتملة فنياً ومضمونياً.

تكشفُ هذهِ الدراسة عن مضامين وثيمات فكريةٍ واجتماعية للروائي المصري يوسف زيدان في روايتهِ "محال" وهي رواية ترتبط ارتباطاً بيّناً بشخصية هذا الكاتب من جوانب متعددةّ، حيث تمثل رحلة هذا الشاب "بطل الرواية" من موطنهِ مصر إلى دولٍ وأمكنة، ولعلَّ العنوان الذي حملته هذهِ الرواية ينسجم مع تعدد الأمكنة ويحملُ في طياته المسوغ الدرامي للرحلة والسفر.

إنَّ التعمق في سيرة يوسف زيدان يجعلنا ندقق النظر في شخصية إشكاليةٍ حملت في طياتها فكراً يظهر وجهة نظر الكاتب من خلال معانٍ صوفية طَغت على لغة الكاتب الروائية.

والناظر في سيرة يوسف زيدان واختصاصه بالتراث العربي المخطوط ومؤلفاته الفلسفية في تاريخ العلوم والقضايا الإنسانيّة الملحّة جعلت منه كاتباً يُعنى بالتاريخ ومضامينه الفكرية.

رواية مُحال هي الجزء الأول من ثلاثيّة يوسف زيدان جاء بعدها تباعاً رواية "جوانتانامو" ورواية "نور"[(1)]

والثلاثيّة في الأدب الإبداعي تعني رواية أو قصة من ثلاثة محاور كلّ محور له وحدة مرتبطة بالموضُوع العام أو المضمون الدرامي[(2)].

ورواية "مُحال" لا تمثل سيرة ذاتية أو وثيقة تاريخيّة، وإنّما نقرأ تشكيلاً فنيًّا روائياً ينسجم فيه الواقعي بالمتخيل. والرؤية المعمّقة التي قدمها يوسف زيدان لحركة الوجود وواقع الإنسان تمثل دافعاً دراميّاً لحركة شخوصه وأبطاله في هذهِ الرواية التي استندت إلى الرحلة وتعدد الأسفار.

وهذا ما دفع الكاتب قصدا إلى عنونتها دون تشكيل لتجعل المتلقي يبحث عن ضالته المنشودة في الدلالة والتأويل.

هدف الدراسة:

رغبة الباحث في إظهار الجانب الفكري والسياسي في هذه الرواية الذي أصبح من الموضوعات الملحَة في زمننا الحاضر من مثل: صورة المرأة، التكفير، الإرهاب. وقد استمدها الباحث من

منطوقات النص الروائي تحديداً حتى لا ندخل في إشكالية المصطلح والمفاهيم المتشعبة بين الباحثين في هذا المجال.

وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل رواية "محال" من خلالِ محور المضامين والتجليات بالتوقف عند ثيمات ظاهرة تمثل فكرة الإرهاب حيث تحول البطل محمد في هذهِ الرواية من شخصية وادعة مستقرة إلى الوقوع في فك الاعتقال في سجن جوانتانامو وفكرة الحُب والثروة وسيطرة المال، والنظرة إلى فكرة الجهاد ومفهوم التكفير وغيرها من المضامين التي سنقف عندها في هذا البحث.

إنّ هذهِ الرواية لن تقرأ بمعزل عن سياقها الزمني والاجتماعي، حيث يتجلّى دور الكاتب يوسف زيدان الذي أبدع هذهِ المفردات السرديّة ضمن سلسلة من الوحدات المرتبطة بعوامل التجاور السردي وعوامل السببية والزمنية دون أن يعني ذلك إغفال البنيات المكوّنة للخطاب الروائي بوصفهِ بناءً مستقلاً قائماً بذاتهِ، وأعني هنا: الإشارة إلى السياق التاريخي لهذا العمل لن يرد إلا بمقدار ما هو ظاهرةٌ في ثنايا السرد، وبوصف الخارج الاجتماعي مستنداً نصيّاً يشكل أحد القواسم المشتركة بين الكاتب والمتلقي.

الدراسات السابقة:

ولعلّ رواية "مُحال" لم تحظ بدراسة مستقلّة في بنيتها الفكرية والفنية على أهميتها إلا في شذرات متناثرة في الصحف والمجلات الثقافيّة ومنها ما ورد في الملحق الثقافي لجريدة النهار للكاتب صبحي موسى بتاريخ 2018/10/15م وما قدمه الباحث في قسم اللغة العربية في جامعة نيودلهي محمد شفيع حول يوسف زيدان وثلاثيته "مُحال"، "جوانتانامو"، "نور"[3]

مما حَملَ الباحث على إفراد بحثٍ مستقل عن هذهِ الرواية لعلّهُ يفي بالغرض المأمول من هذهِ الدراسة لما لهذهِ الرواية من أهمية على مستوى الرؤية والتشكيل.

حيث تناولت هذه الدراسات الرؤية التاريخية لروايات يوسف زيدان، والجانب الثقافي من شخصيته الذي تجلّى في مجمل كتاباته الروائية، إلا أنها لم تتناول الجانب التطبيقي والفني لهذه الرواية بعينها (مُحال) مما دفع الباحث لإنجاز هذه المهمة لعلها تفي بالغرض المطلوب.

- المضامين الفكرية والاجتماعية في رو اية "محال".

- صورة المرأة:

تتجلّى هذهِ الثيمة في مساحاتٍ نصيّةٍ ممتدة عبر صفحات الرواية وتمثل هاجساً نفسيّاً لدى بطل الرواية محمد الذي عشق هذهِ الفتاة الجامعيّة التي جاءت في رحلةٍ من موطنها "مدينة

الإسكندرية" حيث تدرس علم الاجتماع إلى مدينة أسوان التي يعمل فيها البطل ليتعارفا في هذا المكان ويشكلّا قصة حُب مفعمة بالتحولات الدرامية التي طغت على مفردات هذهِ الرواية.

لعلّ المرأة في مشروع زيدان الروائي تمثلُ أيقونة نفيسة قدّمها بصورة إيجابية وأشار إلى وظيفتها في الحياة واختار لها أحسن الصفات حيث عبّر عن هذا في رمزية مفعمة بالحب والإثارة لمكنوناته الغائرة في ذاته الحائرة [4].

فيرصد بطل رواية "محال" هذا الشاب العشريني القادم من أقصى جنوب السودان، ليعمل مُرشداً سياحيّاً في مدينتي الأقصر وأسوان، أقصى أحلامه أن يتعرف على نوبية تعوضه عن لحظات الفقر والحرمان التي عاشها فيقول: "لو انتهكَ له الحجاب الآن، لأفاق من أوهامه وكفَّ عن التحليق بأجنحة الأحلام؛ حتى تَملّكهُ الأمل المستحيل في الزواج بفتاةٍ نوبية تكون ساحرة الحضور ومُحبة، مانحة، تشبه هذهِ البحيرة، هادئة الحنوِّ المتموجة صفحتها بانتظام" [5]

إنّ الراسخ العقائدي الذي عاشه محمد منذ سنوات الطفولة الأولى حيث تربىّ في أسرة تقليدية؛ الأم تعيش مع إخوته السبعة في بيت واسع في منطقة أم درمان على ضفاف النيل قبالة العاصمة الخرطوم والأب تاجر جلود يجلبها للتجار في مدينة أسوان، حيث يرى أنّ وظيفة النساء البقاء في البيت لتربية الأولاد، هذا الذي تعلمه من أبيه في سنواته الأولى فيقول: "قبل سنوات أربعة، انتهى من سنيّ دراسته الثانوية متأهّلاً للجامعة وصار عليه أن يعمل إلى جانب الدراسة، ليساعد أباه الكادح ويترقىّ بذلك إلى مرتبة الرجال"[6].

ويؤكد رؤيته حيث يقول: "إذا تشّبه الرجال بالنساء والنساء بالرّجال، فسوف تقوم القيامة عن قريب. لا تأكل من حرام مهما عذبّك الجوع، فالموت جوعاً أهون من عيش الحرام، إذا فعلت الزّنا فسوف يُفعل في أمّك وأختك، فكما تدين تدان، الموت بشرف، أفضل لك من العيش مع العار"[7]

وهنا يرى الباحث أنّ جدليّة الحريّة والالتزام ستبدو طاغية في حياة محمد في أثناء ترحاله وأسفاره البعيدة فعبرّ عن أفكاره الطفولية في لحظات استرجاعيّة وقف من خلالها راصداً المكان التي تربى فيها حيث يمثل نهر النيل رمزية متجددة في حياته بعد ذلك، حيث يقول: "بدت أحلامه للمستقبل القريب لا تعدو كونها أحلاماً تقليدية لشاب سيتخرّج من جامعته، ويعيش مع زوجته التي تمناها لنفسه بصورة بسيطة تبدو ساذجة أحياناً فهو يقول: "أن يحصل الصيف القادم على شهادة الجامعة ثم يعود من السودان إلى أسوان ليقيم بقية عُمُره مع امرأته النوبيّة التي

ستكون بإذن الله متوكية، ولسوف يرزق منها بكثير من الأولاد"[8].

ونحن أمام شخصية مسكونةٍ بالرّاسخ العقائدي كما ذكرنا، فهو يرفض أي علاقة بين الرجل والمرأة خارج إطار الزواج الشرعي الذي أحلّه الله سبحانه -كما يرى- ها هي السائحة البريطانية كريستين تفضله لنفسها وتعرض له المكافأة على ذلك، فجاء الرفض قاطعاً حيث يقول: (بعدها بعامين مرض المرشد المعتمد، فجأة، فجاء إليه المندوب يدعوه للخروج إلى معبد فيلة مع فوج ممتاز، كلهّم إنجليز، كانت بينهم فتاة فاتنة الألوان، ممتلئة البدن، لا تحتمل الحرّ ولا الملابس اسمها كريستين. لم تعرض عليه أي شيء بلسانها، لكن عينيها كانت تعدُ بالكثير إذا اقترب.... تركت معه عنوانها ورقم التليفون وهي ترجو أن يتغير رأيه قريباً. وهو ليس ساذجاً ولن يتغير له رأي، ولن يحيد أبداً عن رجائه في الجنّة) [9]

إنّ قدسية الزواج كما يراها هذا الشاب جاءت من منبعٍ ديني تربّى عليه ووقر في وجدانه حيث يقول: "الزواج أجمل ما يمكن للشاب أن يفعله، بل هو الهدف النهائي له. فهو يعمل ليكسب مالاً يتزوج به، ويحبُ فتاةً بكل جوارحه، ليتزوج بها"[10]

من هنا جاءت الصدمة الأولى لرؤيته فتاة أحلامهِ التي لم تكن في منظوره الحالي، فنرى الفتاة السمراء القادمة من مدينة الإسكندرية مع وفد سياحي يراها للوهلة الأولى قارئة، مثقفة فتلفت انتباهه من المرة الأولى على نحوٍ يغاير نظرته التقليدية للمرأة /الحبيبة/الزوجة التي رسمها لنا في بداية صفحات الرواية، حيث يقول: "وسط الزّحام التفت من دون قصدٍ، فرأى فتاةً منهم تعلّق على كتفها حقيبة سفر سوداء، وفي يدها اليمنى كتاب صغير الحجم يغطي كفها عنوانه، الفتاة رشيقة، مكشوفة الشعر، نادرة الملامح لا شرقية ولا غربية.

بشرتها الناعمة سمراءُ من غير سوء، لشعرها الغزير الطويل أسود وقويّ.

ولعينيها الواسعتين لونٌ بديع يتموج فيه الرماديّ والأخضر، حييّه في طريقها إلى سلّم الباص، بقولها "هاي" فردّ من دون تردد: هاي ورحمتهُ وبركاته"[11]

إنّ الوقفات الوصفية التي رصدها الراوي، تصورُ لنا جليّاً رؤيته الملحّة لتفاصيل المرأة التي طالما حَلُمَ بها على نحوٍ مغاير فجاءت هذه الفتاة المدنية برقتها وأنوثتها الطاغية تداعبُ حلماً ابتغاه لنفسهِ يمثل رؤيتهُ هذا المبدع للمرأة بكينونتها ووجودها.

يقول: "رآها من بعيد وهو قادم نحوها، وقد بدت مثل الفاتنات من بنات السودان وأسوان، لأنّها ارتدت جلباباً أسود تؤطّر أطرافه خيوطٌ ذهبية، يُذهبُ العقلُ جمالُها الوقور الهادئ.... حمل الهواءُ إلى أنفه عطراً ساحراً كأنّه الياسمين"[12]

وتأتي رؤيته للمرأة المثقفة التي مثلتها هذه الفتاة والتي تدعى (نورا) ولعلّها رؤية طموحة أرادها الكاتب للمرأة العربية المثقفة المتعلمة على نحوٍ يغاير ما شاهده وعايشه من نساء الريف والقرية في جنوب مصر والسودان تمنّ أن تتحول المرأة من صورة المستعبدة المشتهاة بجسدها من قِبَل الرجال إلى صورةٍ تحررية مسؤولة أرادها لها في طموح لما سيواجه بعد ذلك. (13)

حيث يقول: (وقد غمرهُ الفرح حين أخبرته بأنّها تدرس علم اجتماع، وأراد أن يعرفها بأنّه يدرسه، فسألها السؤال المعتاد بين الطلاب: من هو مؤسس ومخترع علم الاجتماع، ابن خلدون أم أوجست كونت؟ ضحكا معاً ثم تحدثا بإفاضة وتلذذ، عن أوجست كونت، إميل دوركايم وكارل ماركس) (14)

وتجدر الإشارة إلى مرجعيات ثقافية تناولها الكاتب في حديثه عن معاناة المرأة المصرية والعربية في أعماله الإبداعية.

وهذا ما يراه الباحث (وائل توفيق): معلناً أن الباحث والأكاديمي يوسف زيدان أصر على أن يسبر أغوار الأنثى"نورا" بطلة الرواية التي هي من النوع المونودرامي إذ تدور أحداثها في فلك شخص واحد يسرد للقارئ الأحداث من خلال وجهة نظره وتفاعله مع باقي الشخصيات المحيطة فلا قصص متوازية تتقاطع أو تتشابك مع الخط الرئيسي وإنما هي جميعها خيوط تتفرع من البطل وتعود إليه (15)

فالمرأة عند يوسف زيدان تعاني معاناة شديدة، فهي أسيرة محيطها الاجتماعي الذي يشكلها كما يريد وفريسة لنظرات وأطماع الرجال ورهينة إرادة عائلها المالي الذي ينفق عليها.

وهذا ما يراه الباحث الكبير الداديسي في مقالته: المرأة في مشروع يوسف زيدان الروائي حيث يقول: "لقد شكل موضوع المرأة ثيمة أساسية في الرواية عبر تاريخها الطويل، فجعل البعض منها سبباً للحروب، وجعلها آخرون سبيلاً للسعادة ومنبع الوحي والإلهام، وحطها كتّاب محط القداسة والألوهية، وأنزلها آخرون منزلة الانحطاط والدناسة ومصدر كل رذيلة" (16)

ويرى الباحث: إن هذا الشعور الطفولي للحظة الحب الأولى التي راودت قلبهُ المتعب من السفر والترحال حيث وقف الزمن في وحدة روائية مستقلة جعلها المبدع على لسانه المهيمن على السرد الروائي تنبئ بفرحة غامرة لهذا الحب حيث يقول: (في غرفته، التصق بوجهه الابتسام وهو ينظر في جريد السقف بفرحة الصغار ليلة العيد، راح يستعيد في سرّه ما سمعه الليلة من كلامها، ويسترجع بسمتها المؤنسة، حتى أخذه نوم لذيذ هبّ منه في الصباح الباكر ... وسار إلى الفندق

كأن ساقيه قد صارت جناحين) [17]

وهنا يفاجئنا الراوي البطل المهيمن القابض على مفاتيح السرد بلوحة ملؤها الحزن والترقب للقادم البعيد للحظة انتهاء رحلة الطلبة الذين رافقهم مرشداً سياحياً ومن بينهم محبوبته التائهة لتغادر المكان على أمل في نفسه من عودة مرجوة.

فيقول: (اجتمعت الرحلة في السادسة استعداداً للسفر والافتراق على الرصيف ساعد الجميع على نقل الحقائب، ولم تكن نورا بحاجة إلى مساعدة، كان هو الذي يحتاج إلى مهدئاً لخفقان قلبه. لمغت عيناها عندما توادعا مستسلمين بلا وعود ولا أمل في لقاء، وكيف يلتقيان وهي تتجه شمالاً وهو مجذوب للجنوب؟

وقف ينظر إلى مؤخرة القطار الراحل بينما الحسرة تتموج فيه مع الحرقة [16].

ومن اللافت للنظر ما قدمته الباحثة حنان عقل في دراستها للمرأة في رواية (نور) للكاتب يوسف زيدان – حيث وصفتها بانها رواية عن المرأة العربية في المعتقل الكبير. حيث أفادت: (أن زيدان في ثلاثيته: محال، جوانتانامو، نور. يخوض نوعاً مختلفاً من التجريب عما سبق أن بدأه في أعماله السابقة التي غلب عليها الطابع التاريخي والمثيولوجي، ليقدم قراءة فلسفية وفكرية في الواقع الراهن للإنسان العربي أو ربما تصويراً لحيرته وبؤسه وشعوره بالضياع) [19]

وتضيف الباحثة حنان عقل: في محال، جوانتنامو، نور، لا توجد أجيال متعاقبة، ولا توجد فترة زمنية ممتدة نضطر إلى تقسيمها إلى مراحل، في رواية محال تحكي بلسان الراوي العليم عن شخصية البطل (محمد)، والبطلة (نورا) اللذين يمثلان الروح الحائرة عند الإنسان العربي في مرحلة الشباب، وهذا ما يمّكن القارئ من تبني فكرة الضياع والحيرة في الفترة الممتدة من زمن الرواية بداية التسعينات إلى أحداث 11/ سبتمبر 2001م.

وهنا تبدو صلة الإنسان بالمكان..

محال تمثل صلة الإنسان بالمكان والضياع [20].

وفي لقاء مع الكاتب أجرته حنان عقيل، أشار إلى ارتفاع النبرة السياسية في رواية محال، جوانتانامو. ليشكّل وسيلة إدانة للواقع العربي المرّ سياسة واجتماعًا وفكرًا.

ويوضح زيدان في ختام حديثه أنه يسعى من خلال الكتابة إلى الارتقاء باللغة والوعي العام، وهذا هو أحد تجلّيات الثورة الثقافية التي يسعى إليها، حيث يقول:

(أقول كلمتي وأمضي مثلما فعل الأوائل) [21]

من المفارقات السردية التي صنعها الراوي عودة البطل من جديد لرؤية الحبيبة التي أوشك

على فراقها من خلال مسّوغ درامي حيث تذكر وهو في عمله في أسوان أنها نسيت ساعة اليد التي أهداها إليها والدها، فيسأل عن الرحلة فيقال له إنّ الرحلة والطلاب ما زالوا في مدينة (الأقصر) فيتبعها مسرعًا ليرى المحبوبة بلحظة شوقٍ ولهفة عارمة. حيث يقول:

(خفق قلبه فرحًا حين رأى على مقعدٍ بالجهة اليسرى الدكتورة هداية وإلى جوارها نورا، أعطى ساعة اليد لصاحبتها فشكرته بلسان الفرح، وبعينين دامعتين، تقول نورا: "بصراحة لا أدري كيف تغيّرتُ منذ رأيتك، وصار كلُّ ما فيك يجذبني إليك، كأني قطعة فيك كانت منزوعة"[6] (هو الطائر ونورا عشّه الآمن) [22]

إن الولوج إلى شخصية البطل الموازي في رواية "محال" الذي تمثله محبوبة البطل "نورا" تظهر فتاة مثقفة عاشت مرحلة طفولتها في عذابات وقهر، رصدتها مشاهد الرواية منذ أن توفيت والدتها في حادثة مأساوية "حادثة القطار" وتزوج والدها من امرأة أخرى.

حيث تقول: (فلمّا سألها عن أمّها أسرعت إلى وجهها مسحة من الحزن، وشردت عنه لحظة، وكادت عيناها تدمعان، ثم قصّت عليه القصص: المرحومة كانت أصلاً من المنصورة وهناك رآها أبي أيام كان يتدرّب في شركة المحلّة الكبرى، وأحبّها. تزوّجها وجاء بها إلى الإسكندرية، فعاشا معًا ثلاث سنوات وعشرة أشهر. بعد غدٍ تحلُّ ذكراها السنوية، ففي اليوم الثامن عشر من يناير سنة ١٩٧٥ ماتت أمي في حادثة قطار... كنت آنذاك في الثالثة من عمري، بعدها بعامين تزوج أبي من "طنط توحة" هي امرأة حادّة الطباع وغير حنون، تعتني بنفسها ولا تهتم كثيرًا بالآخرين. عمر أبي الآن يقترب من الخامسة والخمسين، لكن يبدو حزيناً كمن بلغ السبعين، يهمس لها دومًا أنها تذكره بأمّها، ولذلك يخاف عليها كثيرًا ويقلق). [23].

على أن الحدث الأكبر في حياة نور الرغبة الظالمة من زوجة أبيها فتسعى لتزوّجها مبكّرًا من رجل ليبي ثري، وطالما أظهرت نورا رفضها هذا الزواج، وهنا تتجلى فكرة تمرد المرأة ورفضها للمألوف التقليدي حيث تقول: اسمه غريب؛ مفتاح مفتاح المبروك، لكنّها تسميه "الزّفت" لأنه لزج لحوح، وهي لا تحبه ولا تقبل هداياه، لأنها لا تريد الزواج من رجل تعدّى الأربعين، وهو دومًا يؤكد أنه يعيش مع زوجته الليبية ويصفها بالقبح والشراسة". [24]

ويرى الباحث أن هذا القلق الخاطر في مخيلة البطل محمد من البطل المنافس له، جعله يلح بأسئلة تنتظر إجابات قاطعة من حبيبته "نورا" في اختبار قدرتها على الاختيار بينهما.

تتعاقب الأحداث السردية في مشاهد وصفية عبر عنها الراوي في لغة روائية تنبئ بمعجم أدبي

ثقافي هائل يتمتع به الكاتب زيدان وجماليات مضيئة لا حصر لها امتدت عبر صفحات الرواية، وتجلّى ذلك عندما أخبر البطل محبوبته نورا عن ثقافته وإبداعه في قول الشعر: (أخبرها بأنه كان يكتب الشعر وله أبيات عن البشرة السمراء، فابتهجت وهي تدعوه لإلقائها. نظر إلى آخر البحر، برهة، واستمع ذاته وهو يقول بصوت عميق خفيف: أردت كما أراد القدر... فأتت أقمار الحب لتسكنه، فأنا في الليل دليل شمسٍ، وفي النهار برهان قمر... أردت كما أراد القدر). [25]

لم يعد يقوى بطلنا على فراق المحبوبة، فقرر الرحيل إليها في مدينتها الإسكندرية، حجّته في ذلك لأهله وأصدقائه في أسوان بأنه ذاهب للحصول على شهادة دليل سياحي في معهد متخصص موجود في مدينة الإسكندرية، وهناك، ينفرد بنفسه للوقوف عند أماكن المحبوبة التي زارها وارتحل برفقتها إليها فيصبح المكان رمزًا للعشق الذي يذكره بمحبوبته أينما حلّ وارتحل.

فيقول بداية: (ما العشق؟ هو عطيّة ربّانيّة يهبها الله لمن يصطفيه من العباد، ويجتبيه، فيعطيه من أنواره مددًا) [26]

ويرى الباحث أن الكاتب "يوسف زيدان" جاءت لغته الشعرية الروائية مليئة بلحظات الوفرة الصوفية التي آمن بها منذ صغره، وقراءاته المتعددة في هذا المجال جعلت منه كاتبًا مفعمًا باللغة والمفردات الصوفية التي تناثرت عبر مساحات نصية من هذا العمل الروائي "محال."

وهنا يستعرض لنا بطل الرواية على لسان الراوي العليم معارضة الأهل بزواجه من هذه الفتاة الإسكندرانية - على حدّ قوله - عندما سأله صديقه الحاجّ بلال قائلاً: (سأل الحاجّ بلال ساعة العصر، إن كان سيخبر أباه بأمر الفتاة الإسكندرانية التي يريد زواجها، فأكّد وطلب من الحاجّ بلال أن يساعده في إقناع أبيه بالأمر، فإقناعه بذلك أيسر من إقناع أمه الراغبة في عودته إلى أم درمان ليبقى تحت جناحيها، حسب ما تكرّر دومًا على مسامعه) [27].

تجرأ البطل وتقدم إلى مقابلة والد الحبيبة (نور). وطلبها لنفسه على نحوٍ تقليدي برباط الزواج المقدس قائلاً: (على المقهى المفتوح على ميدان البياصة التقى بوالدها فلم يجد عنده صدًّا ولا قبولاً. الرجل طيب، رحّب به وراح يسأل عن عمله وعن أهله، وعما إذا كانت، لديه شقة، أجاب بحسب ما سمح الحال به، وأكد أنه سوف يشتري شقة بأسوان، الشتاء القادم، فقال الأب وهو يمتعض: أسوان... طيب ممكن، أجيب أبويا ونقرأ الفاتحة؟ -الفاتحة مفتوحة يا ابني، روح إنت بالسلامة والسنة الجاية نشوف الموضوع) [28].

لكن صورة البطل المتمرّد هاجه الشوق ولم يقوَ على انتظار العادات والتقاليد التي طالما آمن بها سابقا، يشتري خاتم الزواج ويتفق مع محبوبته وإحاطة العائلة بأمر واقع، ويرسم لوحة للقاء

المرتقب مع حبيبته بعد أن ألبسها ثوبا من الحب والهيام، وجاءت لحظة العشق المكنون بإيحائية جنسية ربطت آدم وحواء منذ الأزل فيقول: (أمسكت نورا بكفّه وأدخلت الدبلة في إصبع المتزوجين الأيسر، ثم مدّت إليه يدها اليسرى الرقيقة وهي مستسلمة، فأدخل في إصبعها الدبلة الأخرى، فقبلتها من فورها ومالت برأسها إلى كتفه، وصدرها المهتاج بزنده غرته نشوة وصبوة، وارتجافات لم يعرفها من قبل، دار رأسه وأسكره عرقه حتى ظن أن هذا الحال لم يمرّ قبله بإنس ولا جنّ، المحبون أبدا حالمون، وبأحلامهم محجوبون)[29]

وجاءت الطقوس البدائية لتعبر عن تلاحم العاشقين واتحادهم في مصير وجودي واحد، وكأني بالكاتب يلوّح برؤية اجتماعية كانت في زمن ما تشير إلى طقس في الزواج البدائي والعادات القديمة، فكاتبنا غارق في تراث إنساني إلى حد بعيد فيقول: "ارتضت نورا بالطقس البدائي ومدت يدها إليه فشقّ فيها برفق جرحًا صغيرًا، ثم أطبقا الكفين حتى تختلط في العروق دماؤهما.. وسحابات بعيدة، وشجرات وردية يحوطها حرير، وأحلامًا ناصعة غسلها بالحب صحوٌ مطير، وفرح غافل وفير" [30]

إن المشهد الوصفي الذي أظهره البطل في صورة جنسية مغرقة في الشهوة والالتحام تمثل حالة الإنسان في خلقه الأول باحثًا عن خلاصه وارتباطه بالمرأة "المعشوقة" تائهًا في أرض الخصب والتي مصدرها المرأة في مختلف العصور والحضارات رمزا للخصب والعطاء.

فترصد كاميرا الروائي زيدان مشهدًا وصفيًا غاية في الروعة والإتقان لحالة حميمية في عشق أزلي تجلّى في الأكوان قائلاً: (بعدما دار الدوار برأسه وبرأسها، دفعت عنها القيد الفوقي، فانفلت نهداها يتمردان، تاهت أنظاره في النافرين وصبره انهار. ألقت عنها الستور التحتية، وعنه، فاتّقدت أنحاؤها بلسعات ألسنة اللهب وتكسرت تحتهما ألواح السرير، هبطا إلى الأرض فصارت لهما موئلاً وحصيرا، وبحرا ينذر بالغرق فيطلق من قلبها الشهقات عند اشتداد العناق) [31].

يلحّ زيدان في منجزه الروائي "محال" على الوقوف عند خفايا النفس الإنسانية وما يعتريها من ظروف ومسوّغات فجاءت صورة المرأة الخائنة لذاتها أولاً ولأسرتها وَمجتمعها وعقيدتها ثانيًا، غير أن المسوّغ للخيانة كما يرى زيدان لا يعطي الحق للمرأة في هذا الإثم الذي يلتصق بها طوال حياتها على أن نتائج الخيانة تشي بأسرة محطمة وأولاد ضياع وزوج تائه، وهذا المعتقد كما يرى الباحث له دلالته العقدية الشرقية على حد سواء تتمثل في خيانة زوجة الأب والد نورا لزوجها مع عشيقها ضابط المخابرات الليبي الذي أغراها بالثراء والمال، بقيت تحت سطوته تنفذ أوامره

بالضغط على والد نورا للموافقة على زواجها منه.

حيث يقول: لكن نورا لم تكن قادرة على الخروج اليومي من منزلها، مثلما كانت تفعل في الأعوام السابقة، وما عاد أبوها ينصرها أمام زوجته العميلة للعميل الليبي، وقد اجتمع الاثنان عليها بعدما افتضحا أمامها وانكشف ما كان من أمرهما مستور الفجور.

نورا لا تستطيع المواجهة ولا تقدر على الإفصاح عما رأت؛ رفقًا بأبيها المسكين المستسلم لانهزامه، أمام زوجته الرخيصة، وصديق الأسرة غير الصدوق. [32]

والمشهد الآخر تجلّى في عام (١٩٩٧) الذي يسميه البطل بعام للكوارث والسنة المشؤومة، حيث تجلّت خيانة زوجة صديقه سهيل وهو دليل سياحي يعمل معه في أسوان، وتربطهم علاقة صداقة طيبة، مع ابن عمّها الفرّان، حيث علم بذلك من زوجته الأولى قائلاً: (زوجته الأولى ذات الأعوام الثلاثين، ظلّت تلمح طيلة الأيام الماضية بأشياء شائنة تشير إلى زوجته الثانية، الأصغر منها ببضع سنين، سهيل اغتاظ من تلميحها وكلامها المبهم، فضربها، فجهرت في وجهه بأن زوجته الأخرى فجرت، بُهت من جرأتها فاستقصى منها الخبر وهو يكيل لها ثقيل الصفعات، فقالت إن الزوجة الصغرى تلتقي بابن عمّها "عطيّة الفرّان" خِفية، في الحجرة التي يعيش فيها منفردا بأطراف أسوان) [33].

باح بسرّه لصديق عمره بطل الرواية (محمد). راقبها فتيقن من صحة الخبر وجاءت النتيجة مأساوية، هربت الزوجة وهرب الخائن بلا عودة. وعاد سهيل إلى حياة الضياع، والمجون مع السائحات الأجنبيات. فيقول: بعد يومين تهامس هنا الناس بأن طليقة سهيل الخائنة، اختفت.

قال بعضهم أنها هربت إلى القاهرة مع الفرّان، لكن الكثير يرجّحون أن أهل الزانية قتلوها، ودفنوها خلف التلال الشرقية البعيدة [34].

فيعلق البطل محمّد على هذه القصة المأساوية المشينة قائلاً: (الرّجل في هذا الأمر غير المرأة، لماذا يعظم الجرم عندما ترتكبه المرأة، ويصغر عندما يرتكبه الرجل، فالصحيح أن كليهما يترك في الآخر الذنب والمعصية) [35].

العام المشؤوم بدا مسوّغاً عند الراوي؛ سهيل صديقه ضائع حائر يخبره ضابط أمن الدولة بأن تصريح العمل له قد انتهى وأنه يجب أن يغادر إلى بلده السودان، ومحبوبته لا تجيب على هاتفه واتصاله منذ وقت طويل، ولا يعرف عنها شيئًا، ويجب عليه أن ينفذ أمر الدولة فيذهب مسرعًا إلى عائلته في السودان.

فكتب شعرًا يقول: (أهذا العذاب الذنب، عن غير قصد صار، أهو يا رب اختيار، يا ربُّ قد

ساء واسودّ كالليل النهار، وانهزم الصبر فيّ، وانهار الجدار) [36].

تأخذنا الرواية إلى إيقاع متسارع عبر سلسلة من الأحداث لا تخلو من قفزات زمنية، البطل محمد يعيش فترةً من الوقت بين أحضان عائلته في السودان ويدعو صديقه الحزين سهلاً ليعيش معه هناك لعلّه يخرج من أزمة الخيانة التي عانى منها، ويقنعه بأن يسافر للاستعلام عن أمر محبوبته (نورا) التي لا يعرف عنها شيئًا وقد تقطعت أخبارها، فيذهب إلى الإسكندرية بالطائرة لأنه جنسيته سوداني وأمن الدولة قد أنهوا عملهُ في أسوان، وهم يطاردونه ويسألون عنه، وتعاطفت معه العائلة بعدما رأوا من سوء حالته لفقد محبوبته الضائعة، فأقنعوه بالسفر إليها جوًّا كمسافر يأتي من دولة أخرى.

وتحقق ذلك ونزل في الإسكندرية وقابل صديقتها "أمل" التي باحت له بهول المفاجأة، بأن حبيبته اضطرت للزواج من ضابط المخابرات الليبي برحلة درامية آسرة، والدها تعرض إلى مرض شديد في الكبد وهو فقير الحال، فجاءت سطوة المال التي طالما أشار إليها زيدان في هذه الرواية، مما اضطر المحبوبة للزواج من هذا الرجل التي لا تطيق حتى سماع اسمه، فتكفَّل بعلاج والدها وأخذ لها منزلاً وقد أنجبت منه طفلة، ولهول المفاجأة يتأكد بأن هذه الطفلة هي ابنته، فأصبح في حالة من الذهول والحزن الشديد، ولم يتمكن من مقابلة الحبيبة حيث أقنعته صديقتها أمل بأنها في حالة حزن شديد فلو نظرت إليها فلن تعرفها.

حيث يروي هذا المشهد قائلاً:

بعد لقائهما الأخير بأسبوع، تزوجت نورا رجلاً ليبيًّا وأنجبت طفلةً عمرها الآن تسعة أشهر، كانت مضطرة لأن أباها أصيب قبلها بشهرين بفشل كلويّ، فتعهد الرجل الليبي بعلاجه.

طيب أرجوكِ يا أمل، أنا نفسي أشوف نورا

حرام عليك، سيبها في الهمّ اللي فيها، هيّ مش ناقصة. نورا خلصت خلاص.

وقد حطّت عليه في وحدته أثقال الأولين والآخرين، حتى إنه لم، يقم من موضعه لاتّقاء هبات المطر الذي انهمر فجأة [37]

وهنا تأخذنا الأحداث إلى هروبه من واقعه المرير واجتهاد عائلته وأصدقائه فوجدوا له عملاً في دولة الإمارات، فيقف محمد عند مفارقات نصيّة مذهلة، فيصف الراوي المدن الإماراتية ويقارن بينها وبين الشارقة والفجيرة ودبي، قائلاً: (مع اجتهاد أمّه ومعاونة الأهل والجيران، توالت المحاولات حتى أوجدوا له وظيفة في بلاد الخليج البعيدة) [38].

هناك يلتقي بالوافد السوري "فواز" مديره في العمل فتربطهم علاقة جيدة، يتوسم فيه الخير فيخبره بأنه مجتهد ومخلص في العمل، وتدور الحكايات بينهم حتى أقنعه بالذهاب إلى فرعهم مصنع الألبان في أوزبكستان. ألم الفراق ظلّ يلحّ على بطلنا في غربته تمثل فيه رؤية الحبيبة في حلّه وترحاله.

فيقول: (فما أنا إلا روح حائرة تراوح بين المحال، أم تراني صرت على العكس، صرت بدنًا توارت عنه الروح بعد فُراق نورا) (39)

قفزة زمنية أخرى تأخذنا إلى رحلة البطل إلى مدينة بخاري مع بداية عام ٢٠٠٠م الألفية الجديدة... قائلاً: (أوشك العام على الانتهاء، وأخذ الناس في الأنحاء يستعدون لاستقبال ما يسمونه الألفية الجديدة، ما كان يعرف أن مهيرة مليحة فاتنة، وفيها هذا الحسن مخبوء... مهيرة مهر هبط من الجنة) (40).

يتراءى للباحث أن صورة الفتاة الزوجة المسالمة الهادئة المطيعة قد رسمت ظلالها على روح ووجدان الراوي، تطيعه في كل شيء ولا تناقش أوامره مهما صغرت أو كبرت، لعلها الصورة التي داعبت مخيلته منذ بداياته في مرحلة شبابه الأولى في بلده السودان، قدسية الزوج الشعور بالذكورة المجتمعية تجلّت عند هذه المرأة البسيطة وقد تربّت تربية إسلامية تقليدية بأن طاعة الزوج من طاعة الله سبحانه.

وتنتهي الرواية على رؤية مفتوحة تتيح للمتلقي أن يؤول الأحداث على نحو منطقي، فالبطل يساق ويقع في أيدي الإرهابيين ويودع السجن حيث اللاعودة، وفتاته تنتظر عودته، وصبيّه الأول لا يعرف عنه شيئاً.

حيث يقول: (وأعتقد أنهم أخذوه إلى أمريكا لإيداعه بأحد سجونها، لكنه كان مخطئاً في اعتقاده .... فهذه الأرض التي هبط عليها ليست بأمريكا، وإنما هي كوبا وهو لن يحبس في السنوات السبع التالية بسجن عادي، بل سيبقى أسيراً في معتقل رهيب يديره الجيش الأمريكي سرّاً. اسمه جوانتاناموا) (41)

ويتراءى للباحث أن صورة المرأة في هذه الرواية جاءت مقاومة للواقع المرير الذي تعيشه وأعلنت حالة من التمرد، فبطلة الرواية نورا خنعت لظروفها في البداية، لكنها عادت واستجمعت قواها مع أول مساعدة ودعم لها، قاومت الظروف وتغلبت عليها، استعادت حياتها وعادت لتكوينها كيف تحب، على أن صورة المرأة العربية في قائمة الانتظار والخوف من المجهول جاءت ممثلة في شخصية الزوجة الثانية "مهيرة" التي بقيت حبيسة هذا الانتظار والروح الحائرة

المستكينة.

وترى الباحثة (زلفى شحرور): (أن زيدان أبدع وتفنن في وصف حياة الناس البسطاء في كل تفاصيلها، مشاعرها، همومها الحياتية والاقتصادية وغياب اليقين في المستقبل، التي حوّلت الكثير منهم إلى متدينين بحثاً عن الرضا الحياتي وأملاً في الجنّة). [42]

البعد الفكري والاجتماعي:

لعلّ أحداث الحادي عشر من أيلول من عام 2001م جعلت الرواية العربية أمام مفترق من الطرق الفكرية والعقائدية والسياسية تجاه مفهوم ثقافة الكراهية التي نتج عنها مفاهيم متعددة من تكفيرية وإرهاب، جعلت المثقف العربي أمام تحدٍ واضح في النظرية والتأصيل من جهة وفي التطبيق على أرض الواقع من جهة أخرى.

ومن هذا المنطلق كانت أطروحة الكاتب يوسف زيدان في الندوة الدولية التي نظمتها مجلة العربي الثقافية الكويتية وحملت عنوانها "ثقافة التسامح والسلام" في الفترة الواقعة بين 9-11 مارس 2015م- هي الأكثر لفتاً للأنظار عندما قال: (أيُّ محاولة لاستخراج معنى ثقافة السلام من الأديان غير ناجحة ومحكوم عليها بالفشل، لقابلية النص الديني الكبيرة للتأويل ومراوغة اللغة التي لا يمكن تجميدها في معنى واحد" فكل ديانة سقفها الأعلى نص مكتوب، وشروحاته وتفاسيره مساحة للتحرك والتبديل، بينما يبقى النص المكتوب الشاهد الأول) [43]

وفضّل يوسف زيدان استخدام وصف الجماعات الإجرامية بدلاً من الإرهابية لأنّ استخدام كلمة "إرهاب" يتضمن التخويف والزجر، بينما لا يمكن وصف ما تحدثه تلك الأيادي والعقول إلا بالجرم الفادح بحق العالم.

ويتراءى للباحث أن هذه الرؤية العقدية والفكرية جاءت على لسان الكاتب الضمني (الراوي) في رواية "محال" منذ استهلالها عند الحديث عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي عصفت بمصر والسودان في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، فوقف السارد واصفاً الأمكنة التي عاشها بطل الرواية من فقرٍ وضياع واستلاب لتشكل وسيلة إدانة أرادها الروائي زيدان لتنبئ بواقع مقبل على الانفجار والكراهية في أية لحظة.

تجلّي ذلك منذ متابعة أمن الدولة في النظام الفاسد في مصر له ولأصدقائه في عملهم وحلّهم وترحالهم، من هُنا جاءت النظرة الحاقدة لدى المواطن العربي في رؤية أبناء جلدته يسلبونه ويقهرونه وهذا الذي مهّد لسقوط أنظمة عربية كثيرة ومنها مصر والسودان موطن الدراسة.

ولعلّ الحديث عن أدبيات المرحلة الممتدة من التسعينيات إلى السنوات الأولى من الألفية الثانية (زمن الرّواية) في الوطن العربي "مصر والسودان" ورؤية العالم الاستعماري الذي سلب خيرات العرب ووقف يراقب ضياعهم وتناحرهم هو الذي أراده يوسف زيدان في حديثه عن مقومات الثورة والربيع العربي الذي جاء لاحقًا، ليشكل وسيلة إدانة لواقع عربي مريض، مختل، غير منسجم مع ثقافته الأصلية (المعتقد) وثقافة العصر المادية (البرجماتية) التي جاءت مستوردة من الخارج المستعمر.

ويرى الباحث أن هذه الرؤية الفكرية لثقافة الكراهية ونتاجها الإرهابي الرافض للأنا والآخر على حد سواء، هي التي قبلتها شخوص الرواية التي رافقت البطل في أسفاره وتحولاته الاجتماعية والسياسية.

شخصية عبد العال صديق البطل، تقدم على أنها شخصية متحولة قابلة للقراءة والتأويل يقول: (وجد في عبد العال رجولة وشهامة أصيلة، فكان يميل إلى مجالسته كلّما سنحت فرصة بين الصلوات، أو التقيا في الأمسيات، ومع الأيام عرف فيه الطيبة والتناقض في عامه الأول بأسوان قال له عبد العال إنه يريد ادّخار ألفي جنيه ليشتري بندقية) (44)

ومنذ صدمته الأولى في حُبّه الضائع من الفتاة التي تزوجها شخص آخر، فكان التحوّل في نظرته للوجود والحياة حيث يقول: (لكنّ عبد العال راحت أحواله تتبدّل رويدًا ويبس جسمهُ، حتى صار كأنه شخص آخر، في الموسم الماضي كان يرفض الخروج مع السائحين، ويسمي التماثيل الأصنام، ويقول كلامًا غريبًا من نوع: لن تخدم الكفّار الفاسقين، السياحة حرام، لا حُكم إلا لله، طرده الخال حمدون من العمل فاختفى بعد ذلك وانقطعت أخباره) (45)

ويضيف الراوي: "راقبه المخبر الواشي لأمن الدولة ويطلب منه القدوم إلى مكتب التحقيقات في رموز النظام الفاسد -كما وصفه-) (فأجابه بعد تلفت بأنه ذاهب إلى الصومال عن طريق السودان) فيأتي الحوار بينهم:

-اسمع يا أخي، هذا نداء الجهاد لكل مسلم حر يتقي الله.

-جهاد ضد من يا عبد العال؟

-كلاب الأمريكان دنسوا الأرض الطاهرة، والإخوة في الصومال أعلنوا عليهم الجهاد والقتال في سبيل الله. " (46)

مشهد آخر تجلّت فيه التحولات الفكرية تجاه مفهوم الكراهية والتكفير والجهاد، تمثّل في لقاء البطل مع شخصية سعودية ثرية حملت لواء الجهاد والتكفير ضد الآخر منذ السودان إلى

أفغانستان، شخصية "ابن لادن."

قدّم السارد شخصية ابن لادن على نحو مُغاير اتسم بالطيبة ومساعدة الفقراء، تعرف إليه عن طريق والده، الذي يقدم له خدمات توصيل المساعدات والصدقات للفقراء في السودان. فيروي قائلاً: (استفسر من أبيه عن هذا العمل الجديد، فقال الأب إنه ليس عملاً، بل خدمة من دون مقابل، يبذلها لرجل من السعوديين يعمل بالمقاولات، يذبح كل يوم خروفاً للفقراء ويوزع عليهم اللحم من باب الصدقات) (47)

يصفه والده بأنه (مهندس سعودي أو شيخ سعودي، يلقي دروسًا بالمسجد ويقوم بمشروعات تطوعية وأعمال خيرية، وقد تبرع للبلاد بإنشاء طريق سريع يصل عطبرة بالخرطوم) (48)

يقف السارد عند مشهد وصفي يظهر الهالة التي تحيط بهذا الشيخ السعودي، فالعبارات التي انتقاها ليست بريئة وإنما لها مقصدها ودلالتها وتأويلها فيقول: (بعد ساعة سير وصلا إلى المربع التاسع بالضاحية الشرقية، حيث بيوت الناس فيلّات ذات حدائق، أوقف أبوه السيارات المحملة بالخراف في ظل أشجار، الرجل طويلٌ نحيلٌ، مُلتحٍ، على رأسه عقال أسود تنسدل منه الغوطة البيضاء المزخرفة بالمربعات الحمراء، وفوق جلبابه البني الفاتح عباءة مؤطّرة الحوافّ بشريطٍ يلمع ببريق الذهب، كل ما فيه يدل على أنه سعودي، الرؤية المعادية للآخر تمثلت ببداية الجهاد ضد الروس في أفغانستان والنظرة إلى الأمريكان على أنهم الأعداء الأشد فتكا بأمتنا وديننا)(49).

لعل هذه الدلالة الوصفية تنسجم مع رؤية الكاتب فيما قدّم من أطروحات متباينة على لسان أمراء الجماعات المسلحة التي تنادي بالزهد وترك ملذات الحياة، وفي الوقت ذاته تعيش حياة من البذخ والثراء، وهذا ما يفسر كثرة الانشقاقات في الجماعات الإرهابية لكل جماعة أمير ووجب على الأتباع السمع والطاعة، فيقول: فقال الأب: إن واحدًا من الحراس السابقين الذين جاؤوا مع الشيخ أسامة إلى السودان من بلاد الأفغان، انشق عليه مؤخرًا وصار شيخًا لجماعة التفّت حوله، وقد أفتى لهم بأن أسامة بن لادن كافر (50).

وجاءت الاقتباسات القرآنية على لسان الراوي متكررة، فيقول: (تظهر كثرة الفتاوى من هؤلاء الشيوخ المأجورين وصدق فيهم قول الحق: وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) (51)

بطل الرواية بدأ يتعرض لضغوط كبيرة من أفراد شرطة أمن الدولة في أسوان، يطلبونه للتحقيق غير مرة بسبب علاقته بصديقه "عبدالعال" المتهم بالإرهاب في الصومال ضد أمريكا

ورموز الفساد في مصر مما جعل الأحداث تتصاعد أفضت إلى عدم تجديد إقامة البطل "محمد" في أسوان وطرده من العمل والعودة إلى أهله في السودان بوصفه مواطنًا سودانيًا، هذه الضغوطات جعلت العائلة تلحّ على ولدها بالسفر إلى الخليج للحصول على فرصة عمل كعادة كل العمال الوافدين.

في الإمارات -مدينة الشارقة- يتعرف البطل إلى شخصية الوافد السوري "فواز" الذي يعمل في مصنع للألبان لصاحبه الثريّ الإماراتي الشيخ "خليفة الغانم".

وتتصاعد وتيرة الأحداث فيقف الراوي للحديث عن العمليات الإرهابية داخل مصر والسودان، ففي (العام ١٩٩٤م، يقول: من زمن الرواية، قام الشيخ الليبي "محمد الخليف" مع مجموعة من أتباعه المسلحين بالبنادق الآلية، بتفجير مسجد حي الثورة (بأم درمان) وأطلقوا النار على المصلين آملين في قتل الشيخ "عبد الغفار" إمام المسجد والشيخ السعودي "أسامة بن لادن") [52]

ويضيف: (صاح الحاج بلال غاضبًا، ومتسائلا عن سبب قتل الناس في المساجد والبيوت فقال الأب إنها فتنة نرجو الله أن يحفظنا منها) [53]

ويرى الناقد المصري جابر عصفور في رؤيته لحركة العنف والإرهاب المتجذرة في المجتمعات العربية وتفاعلها مع الآخر بوصفه الكولونيالي التي تجلّى في كثير من أدبياتنا العربية المعاصرة.

يقول: (كل ذلك علامة من علامات ثقافة التخلف، وعندما يتحول الخطاب الديني إلى خطاب إرهابي، وإلى فعل إرهابي، فإن هذا مظهر من مظاهر ثقافة التخلف وهي ثقافة لا تسعى للحوار ولا تعبأ بالاختلاف، فعلى المستوى السياسة تغيب الديمقراطية ويخفت دور الدولة المدنية، وعلى المستوى الاجتماعي تغيب العدالة ويزداد الفقر) [54]

ويضيف: (ويرى أننا نعيش زمن الرواية التي تمثل عالما متكاملا من التسجيلية الممزوجة بالمتخيل لحركة الإنسان على هذه الأرض، واعتقد أن عصر الرواية سوف يبقى ما بقيت هناك رغبة في معرفة أسباب ما يجري) [55]

وهُنا يركّز الكاتب يوسف زيدان على مجموعة من الأعمال الإرهابية التي ورد ذكرها في وسائل الإعلام داخليا وخارجيا، ليشكل رؤية تحمل مجموعة من التناقض والأخبار الملفقة عن هذه العمليات الإرهابية التي اشتدّ أوارها في نهاية القرن العشرين وبداية الواحد والعشرين في مصر وخارجها.

يروي قائلاً: (بعد أيام جاءت الأخبار مؤكدة أن إسلاميين من المهووسين، هم الذين ذبحوا

السائحين الثمانية والخمسين، ومعظمهم من سويسرا، وقالت الأخبار أن السفاحين السنة، قتلوا بعضهم بعضا بعدما فعلوه) (56)

ويضيف: (أخبره أبوه بأن أسامة بن لادن حين عاد إلى بلاده من أفغانستان بعد أن انتصر مجاهدوها وأخرجوا الرّوس، استقبلوه في السعودية رسميا وأسموه "أسد الإسلام" فعاش حينًا بينهم مُكرَّمًا، لكنه بعد فترة صرّح لهم بأنه لا يصحّ تمكين الأمريكيين من البلاد بل يجب إخراجهم منها لأن النبي عليه السلام في آخر أحاديثه الشريفة، قال للصحابة أمرًا: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب... تضايقوا هناك من كلامه، ثم انقلبوا عليه ونسوا ما كان منهم ومنه، ويقال أنهم سحبوا منه الجنسية فخرج كالمطرود من السعودية إلى السودان) (57).

ويشير الكاتب إلى الدور السلبي الذي لعبته وسائل الإعلام في حرب سياسية إعلامية للتأثير على مخرجات الرأي العام وتبيان أن القتلة دائما بين الإسلاميين، كما حدث في حرب الأميركان في أفغانستان بعد أحداث ١١ سبتمبر. قائلاً: (وتتوالى الأحداث فيخبر فواز صديقه (بطل الرواية) أن الشيخ خليفة قد وافق مبدئًا على تعيينه ممثلا للشركة في أوزبكستان تلك الدولة الحدودية مع باكستان وأفغانستان وهي من المواقع الساخنة في عمليات الإرهاب مع حركة طالبان والجنود الأمريكيين، كانت أوزبكستان جزءاً من الاتحاد السوفياتي الذي هيمنت عليه روسيا تسعين سنة، طمست خلالها آثار الإسلام، وأطفأت مناراته، وفتكت بأهل الديانة) (58)

وهنا يتراءى للكاتب يوسف زيدان أن رؤية الإسلام في أوروبا جاءت مبتورة على غير حقيقتها، فينظر الآخر إلى ديننا بأنه مهد لإرهاب والقتل ونبذ الآخر/ في حين أن هذه الرؤية مغلوطة تواردت من خلال ما قدمه الإرهابيون من أفعال شنيعة باسم الإسلام.

ويصور الراوي صور الحرب والدمار في مشاهد وصفية مروعة في أفغانستان معقل هذه الجماعات، والخيانات الدائرة من رموز الجماعات في قتل الأبرياء من الفقراء، وصورة الأمريكي المستعمر لهذه الأرض بقوة الحديد والنار. قائلاً: (رأى من العدسة دماراً شاملاً يحيط بالمكان وسمع كثيراً من الطلقات مختلفة الأصوات، أراد مزيدا من الهول المحيط ... كانت الريح تعصف في الأنحاء فتثير أتربة لها رائحة البارود وامتلائها بالكثير من قطع أناس كانوا بالأسماء أحياء) (59)

ويستمر الراوي في سرد مشاهد وصفية من صور التعذيب والوحشية من الجنود الأمريكيين في السجون الأفغانية وحملهم أخيراً إلى سجنهم المشهور في جوانتانامو.

ويتم التحقيق معه في هذا السجن الرهيب ليقدم الراوي لوحة وصفية غاية في الدقة الوصفية على مشهد مفتوح من نهاية مأساوية في سجن انفرادي رهيب تبعث المتلقي على تأويل لانهاية له من وسائل إدانة للواقع الموجود للإنسان في معادلة معقدة تدل على الشاهد الإنساني على هذه الجرائم البشعة فالكل مُدان كما يرى (يوسف زيدان).

قائلاً: (هذا عمل لا يرضي الله ولا رسوله، ولا يمكن أن يقبله البشر الأسوياء، لأن الضحايا أُناس لا يحملون السلام، ولا ذنب لهم، لكنكم تفعلون معي الآن نفس الشيء الذي تشتكون منه، ويتباكون، تقترفون الجرم نفسه، حين تأخذوني أسيرا من دون أن أحاربكم) [60]

ويرى الباحث أن: تشظيات الإرهاب لامست جوانب فنية مهمة من عناصر الرواية حتى باتت الشخوص والأمكنة والأزمنة والحوادث مشبعة بوقع الإرهاب آثاره المأساوية في حياة الأمة، هذا ما ذهب إليه بعض المبدعين والنّقاد مشيرين إلى أن التطرف كموضوع فرضته الظروف الراهنة، والروائي يكون أكثر قصدية في اختيار موضوعه [61].

ولعل الجانب التسجيلي قد طغى على الجانب الفني في رواية "محال" في تسجيل أحداث إرهابية وقعت في مجريات الأحداث، وهذا ما أشار إليه الباحث "عماد الضمور" في هذه الندوة الحوارية لصحيفة الدستور"

(تطالعنا الروايات العربية الصادرة في هذه الأيام بكثافة فكرية تعبيرية عالية حتى أن بعضها بات يطغى على الجانب الفني وكأن الأفكار هي المقصودة بذاتها وذلك لجسامة الأحداث السياسية التي تشهدها المنطقة والتحولات الفكرية العميقة التي تجعل من الواقع مجالاً خصباً للمعالجة الفكرية والتصوير الفني) [62].

الخاتمة:

وخلاصة القول إننا قد نتفق مع رؤية الكاتب يوسف زيدان في عرضه وتصويره لمفردات هذه الرواية التي تضمنت الرؤية الاجتماعية والفكرية للواقع العربي الشرقي في حقبته الحالية (القرن العشرين، الحادي والعشرين) متمثلة بصورة المرأة الشرقية ومقارنتها الدرامية مع المرأة العربية. وإبراز الظروف المحيطة بكلتيهما.

في حين أن الباحث يرى بعد هذه التجليات التي أثارتها مفردات الدراسة -أن ثمة تساؤلات كبرى وإشكاليات معقدة تحتاج إلى دراسات بعينها، لعلّ المكتبة العربية قد أجابت عن بعضها، وبخاصة فيما يتعلق بأسئلة الفكر والعقيدة، ومصطلحات إشكالية تناولها الباحثون في دراسات متعددة من مثل: الإرهاب، ثقافة الكراهية، الجهاد، التكفير، الخط الاجتماعي الراسخ في أذهان كثير من المدارس العربية ذات الصلة.

ويبقى التساؤل مشروعاً له طبع وديدن يرتكز عليه: ما هي طرق الخلاص التربوية والثقافة والنفسية التي تثار في دراسات متخصصة للمنحى الروائي العربي، سيما ونحن نعالج ثيمات فكرية طرأت على المجتمع العربي والشرقي وبيئات متعددة تتفاوت فيها الرؤى والطموحات؟

والقراءات المتعددة والمفتوحة لهذه الرؤية "محال" تنقل المتلقي الناقد والبصير إلى تأملات وجودية كبرى طرحها الكاتب في روايته تظهر رؤيته الفكرية لواقع اجتماعي إنساني عبر رحلة الزمان والمكان في محال وأمكنة متعددة تجاوزت المعنى المألوف ليقدم صورة ناقدة لواقع يحتاج إلى تجلية وإظهار القيمة الفكرية والسجالات المتعددة في إظهار صورة المرأة والجوانب الفكرية الأخرى.

الهوامش:

1-روايات يوسف زيدان تباعاً: رواية " محال: 2012م، جوانتنامو 2014م، نور 2016 م

2-سيندا القاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، ط1، 1984.

3-"يوسف زيدان وثلاثيته: دراسة تحليلية"، **مجلة أفلام الهند (مجلة إلكترونية)** محمد شفيع الزمان السنة الرابعة، العدد الأول (يناير – مارس 2019).

4-المرأة في مشروع يوسف زيدان الروائي، صحيفة رأي اليوم.

5-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، دار الشرق للنشر والتوزيع، القاهرة، 2012م، ص 8.

6-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 13.

7-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 17.

8-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 13.

9-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 17.
10-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 25.
11-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 28.
12-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 41.
13-المرأة في مشروع يوسف زيدان الروائي، د. الكبير الداديسي، صحيفة رأي اليوم العدد 2020/9/25
14-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 42.
15-صحيفة النبأ، وائل توفيق، الأحد، 9/ أكتوبر، 2016م، الملحق الثقافي.
16-مقالة للباحث (الكبير الداديسي) المرأة في مشروع يوسف زيدان الروائي، الملحق الثقافي صحيفة (رأي اليوم) 2014/9/17 م
17-المصدر نفسه صحيفة رأي اليوم
18-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 43.
19-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 45.
20-مقالة نقدية للباحثة (حنان عقيل) المرأة في رواية نور للكاتب يوسف زيدان، صحيفة العرب، السبت 2016/10/22م.
21-مقالة نقدية للباحثة (حنان عقيل) المرأة في رواية نور للكاتب يوسف زيدان، صحيفة العرب، السبت 2016/10/22م.
22-لقاء حواري مع الكاتب يوسف زيدان في صحيفة العرب، أجرته الباحثة حنان عقيل الملحق الثقافي لعدد السبت 2016/10/22م.
23-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 57.
24-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 58.
25-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 61.
26-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 63.
27-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 63.
28-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 64.
29-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 82.
30-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 91.
31-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 89.
32-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 92.
33-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 95.
34-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 92.
35-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 102.
36-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 113.
37-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 116.
38-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 119.
39-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 122.
40-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 122.
41-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 143.
42-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 143.
43-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 145
44-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 153.
45-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 186.
46-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 244.

47-ثلاثية يوسف زيدان سرد روائي للباحثة زلفى شحرور، كاتبة إعلامية، صحيفة أقواس ثقافية 2018م.

48-الندوة الثقافية، مجلة العربي.

49-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 45.

50-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 46.

51-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 48.

52-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 50.

53-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 50.

54-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 51.

55-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 55.

56-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 55.

57-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 98.

58-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 90.

59-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 90.

60-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 131.

61-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 128.

62-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 154.

63-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 213.

64-زيدان، يوسف: **رواية محال**، ط1، ص 240.

65-الدستور، يوم الثلاثاء 3/ كانون الثاني/ 2017م، عمان، الأردن.

قائمة المصادروالمراجع

1-زيدان، يوسف: رواية محال، ط1، دار الشرق للنشر والتوزيع، القاهرة :2201م

2-شفيع الزمان، محمد: يوسف زيدان وثلاثيته: دراسة تحليلية، مجلة أقدام الهند، السنة الرابعة، العدد الأول (يناير- مارس9201)

3-سليمان، حسناء: بنية الخطاب السردي- مجلة علامات، مجلد 14، جزء45، 4200م.

4-أوسبسكي، بوريس: وجهة النظر في الرواية على مستوى المكان والزمان، ت: سعيد الغانمي، مجلة فصول، مجلد 15، ع 4، 7199.

5-منيف، عبد الرحمن: الكاتب والمنفى – دار الفكر الجديد، بيروت، ط1، 2199.

6-صالح، صالح: سرد الآخر، الأنا والآخر عبر لغة السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 3200م.

7-صبحي، محي الدين: عوالم من التخييل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 7419م.

8-جنيت، جرار. خطاب الحكاية، ت: محمد معتصم وآخرون الهيئة العامة للمطابع الأميرية المجلس الأعلى للثقافة والفنون، ط٢ ١١٣:١٩٩٧

9- بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٥، ١٩٩٠.

10- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي: المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1989: 24.

11-العيد، يمنى. تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج الواقعي، دار الفارابي، بيروت، ط٢، بيروت، ط٢، ١٩٩٩: ٥٢

12-بوتور، ميشيل. بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، دار عويدات، بيروت١٩٧١: ١١٧.

13-القاسم، سيزا. بناء الرواية، منشورات جامعة القاهرة، القاهرة، ط١٩٧١، ١: ٨٢.

14-لوبوك، بيرسي. صنعة الرواية، ترجمة: عبد الستار جواد، دار الرشيد للنشر، بغداد، ط٨٢:١٩٨١، ١.

15-الصحف والمو اقع الإلكترونية

16-موقع ثقافات: http:/thaqafa.com

17-يوسف زيدان: أحلم برحيل هادئ http: zeidan.com

18-موقع الكاتب يوسف زيدان: https: ar.wikipedia.org

19-جريدة العرب http:www.alarab.co.uk 2016/10/12.

20-صحيفة النبأ، وائل توفيق، الأحد، 9 أكتوبر 2016 الملحق الثقافي.

21-صحيفة العرب، المرأة في رواية نور للكاتب يوسف زيدان السبت 2016/10/22.

22-صحيفة أقواس ثقافية، ثلاثية يوسف زيدان للباحثة زلفى شحرور، 2018م.

23-جريدة المصري اليوم، القاهرة عدد 8 فبراير 2012م.

24-جريدة الرأي الكويتية، عدد 19 مارس 2009م.

25-جريدة النهار، صبحي موسى، مقالة نقدية، بتاريخ 15/ 2018/10.